

في موقفها السلبي تلقاء ما كنا نعتقد في الزمان والمكان باعتبارها شيئان مطلقان يتبع أحدهما الآخر بنسب مستمرة دائماً . ونظرية النسبية تتقبل النتائج الحاسمة التي تؤدي إليها الاختبارات التي تضاد الحقائق الطبيعية التي تثبت عدم وجود شيء من النسبة المستمرة بين الزمان والمكان ، وترفض بحكم مبادئها أن تعترف بضرورة الاعتقاد بديثاً بشيء وهمي خيالي يقال له « الزمان المكاني » المطلق ، باعتبار أنه شيئاً لا يعتريه الاختلاف بنسبة الناظرين إليه . وهي فوق ذلك تزودنا بمعادلات اصطلاحية تبين لنا أن حقيقة حادثة من الحوادث التي تقع في الكون تبقى ثابتة في نظرائين ولو نظر كل منهما إليها من جهة بعينها في النظام الكوني ، من غير احتياج للقول بنظام ثابت مطلق تفرضه خارجاً عن نظام الجهة الكونية التي يكون فيها كل منهما

الخطرة النفسية وموضوع الذهن

بحث عامي فلسفي

ان كل خاطر يمر بالنفس ، وكل فكر يعن لنا هو عبارة عن وحدة قائمة بنفسها وجوهر بسيط غير قابل للانقسام . فلا أجزاء له ينحل إليها ، ولا ذرات بسيطة يتألف منها . بل ولا يوجد تشابه بين فكر وفكر ، ولا تجانس بين هاجس وهاجس اللهم الا تشابه نوعي كما تشبه أفراد النوع بعضها بعضاً مع بقاء كل منها جوهرًا مستقلاً بنفسه . فاذا تكرر فكر من الافكار في الذهن ، فان الفكر العائد هو فكر جديد كل الجدة ، وليس له أية علاقة بشبيهه البائد ، إلا من حيث التشابه النوعي فقط وقد وهم بعض الفلاسفة وظن بان الفكر ليس وحدة قائمة بنفسها ، بل أن ماهيته مركبة من أجزاء دقيقة ، وذرات بسيطة يتألف من تركيبها الفكر المنشود فتعود الحالة النفسية بذاتها اذا تم اجتماع تلك الذرات وتألفت تلك العناصر المكونة لها على هيئتها السابقة . بيد أن الابحاث الحديثة في علم النفس قد بددت ذلك الخطأ ، وأرتنا أن سبب تكرار الحالة الذهنية يرجع إلى أن لكل خاطر أو فكر يمر بالنفس موضوعاً خاصاً تستغرق فيه الحالة النفسية ، إذ لا يمكن تصور

خلو السانح الذهني من الاشتغال بموضوع ما ، والاحتواء على أمر مفكر فيه ، ونظراً لأن موضوع الذهن يظل عادة أمام النفس فترة من الزمن ، فأننا نمضي تفكير فيه بصورة سريعة بحالات نفسية تشبه بعضها البعض تشابهاً نوعياً تاماً نظراً لذاتية الموضوع أمامنا وثباته وعدم تغيره بالنسبة الى الذهن تغيراً جوهرياً على أننا إذا سلمنا مع اولئك الفلاسفة ، وقلنا معهم بان الفكر يعود بنفسه وذاتيته فالعلم الحديث يقول لهم بان موضوع الذهن ، وكل شيء تفكر فيه ، ليس منفرداً قائماً بنفسه . بل أنه جزء من مجموعة مواضيع أو أشياء متصلة به اتصالاً قريباً أو بعيداً . وأن ذلك الموضوع يتخذ بالنسبة لمجموعة هذه الاشياء أوضاعاً نسبية غير متناهية ، وأن علاقاته بها لا يمكن حصرها لانها غير محدودة . فأننا عندما تفكر فيه كل مرة نراه دائماً بوضع جديد وعلاقة جديدة فنعاود التفكير فيه بحالة نفسية جديدة تختلف كل الاختلاف عن الحالات النفسية السابقة لها في المحتوى الذهني جملة وتفصيلاً . لانه يستحيل على النفس أن تتصور شيئاً من الاشياء عارياً عن كل العلاقات ، منفرداً عن كل النسب مجرداً عن الارتباطات ، لأن هذا الشئ المجرد غير موجود فعلاً .

على أن الذهن يعتاد تناسي العلاقات الواقعة بين الاشياء وبين الموضوعات ، ويألف اغفالها ، وعدم الاهتمام بها مع أنها موجودة تصحب الشئ وتلزمه دائماً وتحدث حوله ظلاً أو هالة تجعله بارزاً جلياً منيراً . وبالنظر لان العلاقات والنسب والارتباطات التي تكتنف موضوع الذهن لا يحصيها العد كما قلنا ، فلا بد من أن تكون الحالات النفسية المقابلة لذلك متنوعة ، أبدية التغير يستحيل تكررها بذاتها . وكل مانعرفه عن الشئ هو ظهوره ظهوراً نسبياً ، أي بالنسبة لمجموعة الاشياء التي أمامنا في وقت ما .

أما الامثال على ذلك فكثيرة : من ذلك أن الاشياء الزاهية اللون تظهر لنا في نور قوى كأنها بيضاء . وقد حسب الاستاذ هلمولتز Helmholtz الألماني مقدار الفرق بين ظل صورة تمثل بناءً شامخاً مجزأً بالرخام نراها في ضوء القمر ليلاً ثم نراها في ضوء الشمس نهاراً ، فوجد انه يتراوح بين عشرة آلاف الى عشرين الف ضعف ! ومن ذلك أيضاً أن الوقت يظهر لمن استيقظ صباحاً من نوم طويل عميق كأنه ظهرأ ، ومن الامور المشاهدة أن عواطفنا ومشاعرنا نحو موضوع

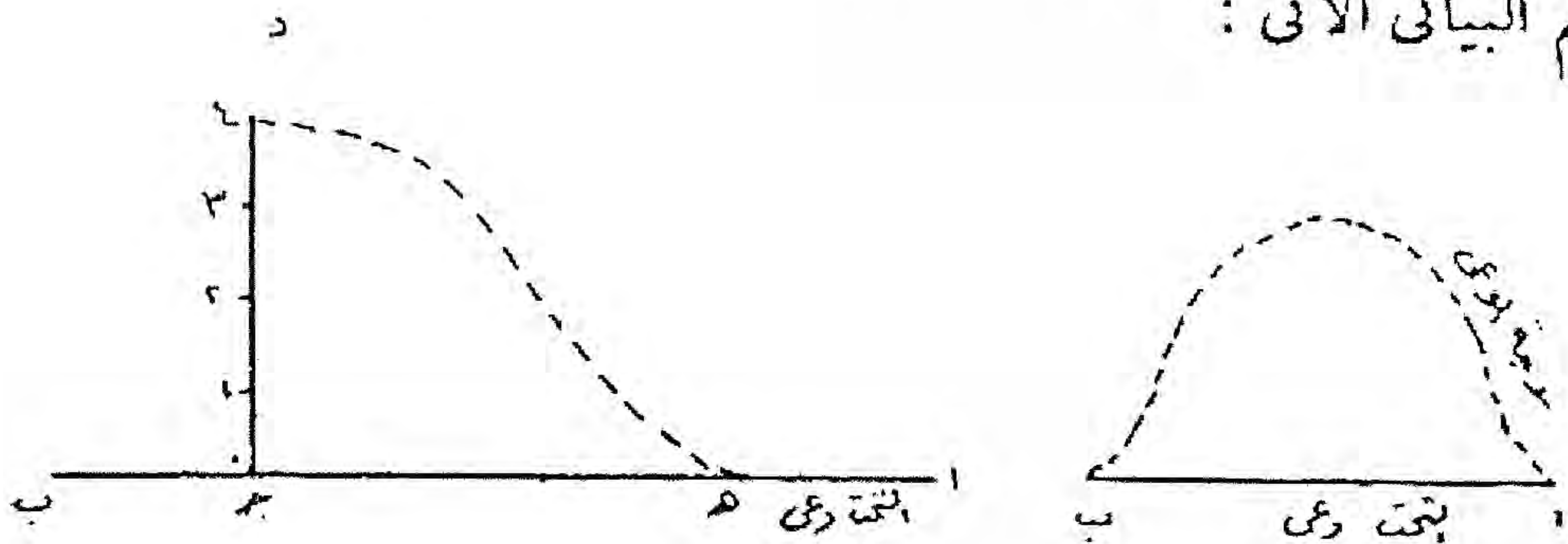
واحد تتغير من عصر الى عصر ومن سن الى سن . فما كنا نراه في الصبا
أمراً حسناً قد نعجب في سن الكهولة أو الشيخوخة لأثره السابق في نفوسنا .
وقد لا يهزنا الآن شعر شاعر أو نثر كاتب ، أو مؤلف كنا نبذل في ماضينا كل
نفيس في سبيل تلاوة ما يخطه قلمه ويمليه الهامه .

وقد زاد الى خطئ القائلين بعدم بساطة حالات الوعي وخطرات النفس وانها
مؤلفة من أجزاء ، ظنهم أن تكرار الفكرة والسانحة الذهنية يلزم منه تكرار
السيال العصبي Nervous Current الذي ينساب في المخ بمقدار يكافئ تلك الحالات
النفسية . على أننا نعرف من علم وظائف الاعضاء « الفسيولوجيا » مبلغ استحالة
ذلك . فإن السيال العصبي الذي يسير في الاعصاب ويغمرها يتدفق كالنهر الدائم
الجريان . فمن المستحيل اذن معاودة جزء من ذلك السائل بنفسه بما يكافئ أية
خطرة من خطرات النفس حتى ولو فرض وكانت غير متغيرة . على أننا نعرف أن
موضوع الخطرة النفسية والسانحة الفكرية غير ثابت بل إنه متغير أبداً . وذلك
لمكثرة المناحي والوجهات التي نراه فيها وتعدد الاشارات والنسب حوله تعدداً
لانهائية له . فمن المستحيل اذاً أن يكون السيال المخي المماثل له واحداً لا يتغير تبعاً
لتغير الموضوع . والذي نعلمه أنه هو الآخر غير ثابت في مظهره وكميته وأنه
قلق متقلب لا يظهر بازاء الحالة الوعائية إلا مرة واحدة ثم يختفي الى الابد . ومن
الثابت أيضاً أن الحالة الفسيولوجية العامة للمخ تتفاوت تبعاً للوقت والسن والصحة
والمرض . فقد يكون المخ أو بعض أجزائه مغموراً في لحظة ما بكمية زائدة من
الدم . وقد يكون في آن آخره صاباً بفقره كما وكيفاً . فظهور الحالة الذهنية السابقة
مرة ثانية اذاً مستحيل من الوجهة الفسيولوجية أيضاً .

وما نتجت هذه الاخطاء وشاعت الا مجازاة للعرف الذي جرى عليه عامة
الناس منذ القديم . واعتبارهم الاشياء مؤلفة من أجزاء متضامنة يقابلها في الذهن
صور نفسية تماثلها وتقابلها ، مركبة هي الاخرى ، على غرارها ومثالها . فالفكر
عندهم مؤلف من أجزاء وذرات . وقد تجد ذلك منبثاً في تضاعيف الفلسفة
اليونانية والعربية . فكم من أبحاث لهم عقيمة في الوجود وأقسام الموجود
والصورة والهيولى والجوهر والعرض وقابليتهما أو عدم قابليتهما للانقسام وما
يتبع ذلك من مسألة الذرات والجوهر الفرد مما هو مبسوط في كتب ارسطو ومن

تابعه من فلاسفة الاسلام كابن سينا في الشفا والاشارات والنجاة ، وابن رشد في تلخيصاته ، ونصير الدين الطوسي في التجريد وشرح التجريد ، وغير ذلك مما فرغ منه الغربيون منذ أيام اللورد بيكون الانكليزي وغاليليو الايطالي وديكارت الفرنسي ، وغيرهم ممن أظهروا للعالم الاضرار التي لحقتها تعاليم المعلم الاول بالثقافة العالمية ، ويريدون اليوم باسم التحقيق والخدمة العلمية ارجاعنا اليه كأن لم يكفهم تورط الأمم الاسلامية أكثر من الف عام في ترهات هتك سترها تقدم العلم الحديث .

ومن الغريب أن يوجد بين كبار الفلاسفة من كان يرى أن الفكر مؤلف من عناصر مستقلة بعضها عن بعض كدافيد هيوم الانكليزي . وعنده أن الاتصال بين عناصر النفس وحالاتها مفقود . على أن كل هذه النظريات قد أبادها العلم الحديث سواء بنظرياته أو بتجاربه . فنحن نعرف الآن أن الفكر مستمر متواصل تواصل جريان الماء في النهر . وقد مثل الاستاذ مورجان لذلك بالرسم البياني الآتي :



فالخط الافقي ا ب يمثل الحالة النفسية التي تمر في النفس دون أن نعي مرورها ومثلها في ذلك كاعماق المياه في البحر أو المحيط أو النهر العميق . فالماء جار على اننا لا ندرك جريانه ولا نشعر به . وكل ما نعرفه هو الامواج التي تعلو سطح الماء . والحالات أو الخطرات النفسية التي نشعر بمرورها في النفس هي كالامواج الشائكة. والخط الرأسى ج د هو مقياس ذلك الشعور وذلك العلم الذي تتركه الخطرة الذهنية في النفس . وهو كما ترى مدرج وعلى حسب ارتفاع رأس الموجة الوعائية يكون شعورنا بأثرها في الذهن . ولموجة الوعي هذه قاعدة (ا هـ) يدعوها علماء النفس بالتحت وعى «أو» بالعتبة التحتانية (١) والنقطة هـ التي تبتدىء منها الموجة

(١) انى افضل اصطلاح التحت وعى على اصطلاح اللا شعورى نظرا لأن ذلك الاصطلاح أدل على الأصل الافرنكى Subconsciousness أو Souconscience في الفرنسية

بالارتفاع تسمى عادة بعتبة الوعي أو بالعتبة أو بالهامش أو بالهدب «التحت وعيني» .
ورأس الموجة ونهايتها يسميها الاستاذ مورجان «بلمحظة الوعي» أو «بيورة
الوعي» وذلك لأنها تجمع أو تحصر القوى النفسية في خطرة واحدة كما تجمع
العدسة خطوط النور في نقطة واحدة هي البورة .

ان في قرار كل نفس تتوالى حالات الوعي بصورة مستمرة أبدا غير متقطعة
كتوالى جريان الماء الدافق في مجرى نهر عميق . وكما ان الفراغ في العالم الخارجى
غير ممكن التصور فكذلك الفراغ الذهني أو انعدام الحالات النفسية ولو لحظة
لا يمكن تصوره .

ان معنى الاستمرار هو الاتصال الذى لا تقطع ولا انقسام فيه . وقد وهم
البعض وظن أن الحالات النفسية تقف عن الاستمرار وتتقطع بأمر عارض للنفس
مفاجيء لها . وقد خطأهم الاستاذ جيمس بعد أن بحث معهم ووجد أن التقطعات
المحتملة في مجرى الفكر ثلاث . أولا ايقاف أو مقاطعة عمدية مقصودة أو
اضطراب فجائى في الفكر . وهو يقول انه بالرغم من التباين بين حالتين نفسيتين
فان المرء يشعر بأن كل خطرة نفسية تابعة لما سبقها وملحقة بها تمت اليها بصلة
متينة تقسر على اللحاق بها . والحالة الثانية هي فاصلة زمنية وذلك بأن يكون
بين حالة وعي وأخرى فاصلة زمنية كأن يفصل النوم بين حالتين متباعدتين كل
البعد في الصفة والمحتوى . وكأن يعترى المرء اغماء يفصل بين حالة نفسية مشعور
بها وأخرى كذلك . وكأن يخدر الانسان أو يصرع أو يسمم بالغاز المضحك
الذى يستعمله أطباء الاسنان في العمليات الصغيرة «Nitrous Onide» على أن
هنا أيضاً يشعر المرء في حالته النفسية الجديدة انه هو نفس الشخص الماضى
وأن حالته النفسية الحاضرة شديدة الاتصال بالماضى وجزء منه لا ينفصل عنه

على أن الشعور بأن الانسان في حالته الراهنة وبعد الخروج من حالة
لا وعية «لا شعورية» هو جزء لا يتجزأ من كلى ، هو الشخصية المستمرة يصحبه
عادة شئ من اللحمة والودأ وما يسميه علماء النفس «بالحرارة النفسية» Warmth
بخلاف علاقتنا بالأفكار الغريبة عنا الغير تابعة لنا فاننا لانشعر نحوها بذلك
العطف وتلك الصلة أو تلك الحرارة والانس . فالوعي اذن ليس متقطعا بل انه
متواصل الجريان ينساب في النفس انسياب ماء النهر سواء بسواء

أما المفاجئات في صفة الوعي فأبين الامثلة على ذلك هو هزيم الرعد وقصف المدافع ومفاجأة الصواعق أو ظهور شيء جديد غريب أو مفاجيء والمفاجآت على أنواعها عامة . وقد وهم القائلون بتقطع حالات الوعي بورود حالات جديدة مفاجئة لسببين : أولاً أنهم خلطوا الحالات النفسية الواردة على النفس بما يقابلها خارج الذهن فظنوها متقطعة كل منها مستقلة قائم بذاته كتقطع مواضع الخطرات النفسية والاشياء الخارجية في استقلالها وقيامها بنفسها وذلك من الخطأ بمكان . وذلك نظر سطحي لأن الحالات النفسية ليست مستقلة كل منها قائم بنفسه مستقل ومنفصل عن غيره كالأشياء الخارجية . وما يسميه فلاسفة العرب بالوجود العيني . بل ان كل حالة نفسية مندمجة فيما قبلها ممتزجة بها امتزاج الموجهة بالموجهة متصلة بها اتصال الموجهة بسطح الماء . فالانفجار أو الرعد القاصف أو ظهور شيء جديد لا يورث في النفس حالة تقابل الشيء المفاجيء وحده فحسب ، بل ان ما يحصل في النفس هو اننا نشعر بأنه حالة جديدة واردة على حالة قديمة . وبعبارة أخرى اني عندما أسمع هزيم الرعد أشعر في نفسي بحالة نفسية هي هذه : هزيم — رعد — واردة — على — سكون — ومضاد — له . فأنت ترى بذلك أن مثل هذه الحالات النفسية التي كل واحدة منها وحدة قائمة بذاتها لا يوجد ما يقابلها في العرف واللغة فاللغة ناقصة كأداة للتعبير ومن المستحيل عليها أن تعبر تماماً عما يجول في الخاطر . ذلك ان الخطرات النفسية تشمل أكثر مما يحتويه اللفظ . وتجد المثل واضحاً جلياً في المثل الذي أوردته هنا . فالاستعمال اللغوي يسقط كثيراً من الاشياء بينما تعيها الحالة النفسية . ومن هنا يتبين لنا السر في استحالة التعبير عما يجول في الخاطر . ويتبين لنا أيضاً التفاوت بين اللغات . فليس سعة اللغة وتفوقها بكثرة المترادفات وتعدد الألفاظ بل بكثرة الاساليب السهلة المعبرة عن كل ما يجول في الخاطر ويسمح للنفس حسب الاستطاعة .

على أن ما ذكرته يقابله في المخ أيضاً عملية شبيهة بتلك العملية النفسية . وذلك ان لكل خثرة ذهنية عملية مخية مادية محضة برهن على وجودها علماء النفسولوجيا « علم وظائف الاعضاء » وذلك بأن يمر أو يصب سيال يسمى بالسيال العصبي في خلايا المخ وأعصابه واليافه ومراكزه ويغمرها . وعندهم انه اذا لم يكف مؤثر واحد في انتاج حالة نفسية مقصودة فقد يتم ذلك بتجمع مؤثرات

مخيه متعددة تنصب كلها على مركز مخي واحد فتنتج الحالة النفسية المطلوبة .
 على انه لا يوجد عملية مخيه واحدة ، بل ان كل ما يتم في المخ يتم بانصباب تيارات
 مخيه مختلفة ينتجها السعال العصبي في آن واحد ، وهو ما يسمى عندهم « بقانون التجمع »
 « Summation » . وكذلك الامر في الحالات النفسية المقابلة ، فانها هي الاخرى
 مختلطة ممزوجة مندمجة بعضها ببعض ، وان تكن موجة الوعي التي تكلمت عنها
 هي آيين أجزاءها وأكثرها بروزا وظهورا . فسير الحالات النفسية الحالية وسرعة
 جريانها في الخاطر يتوقف على الحالات السابقة لها كما يتوقف حجم الموجة وسرعتها
 على العوامل الكثيرة التي تسير النهر وتوجهه في مجراه . واذا كان استمرار
 السعال العصبي في المخ يشبهه تماما تيار الماء الجاري في مجرى النهر ، فان الحالات النفسية
 أيضاً كذلك . فالنفس نهر واسع عميق المجرى دافق كثير الامواج .
 ع . حسين تقي اصفهاني

عن ليالى الفريد دو موسيه ترجمة الدهشان

آلهة الشعر :

تدور على المحور المضطرم	مذ الشمس دارت بافق السما
ن مداراً يضئ بها من قدم	ومن يوم جازت من السرطا
ت على الصمت مغتمة والألم	عدتني السعادة حتى لبث
ب فضاء زمانى ولما أنم	وأرقب وقت نداء الحيد
د ومغناه قفر عرته الظلم	فوا أسفا - من زمان بعيد
ولا يوم يبعث بعد العدم	وأيام ماضٍ سعيد قضت
على قناع أخاف التهم	ووحدي أجيء على خفية
على بابه في اتهام القضا	وأسند في حسرة جبهتي
على قبر طفلٍ وحيد قضى	كأرملة أجهشت بالبكا